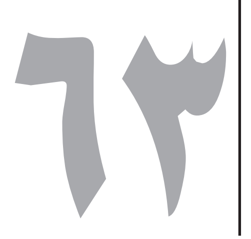
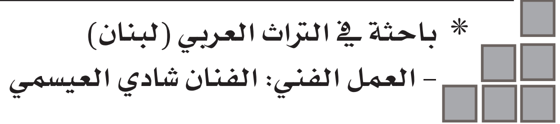


مذهب التحامق في العصر العباسي

كــارين صــادر *

ما بين القبح والحسن فرقٌ هو نفسه الذي يفصل بين الغنى والفقر، والكذب والحقيقة، والواقع والوهم، والأمل واليأس، والحق والباطل.. ثنائيات ضدّية تتجاذبنا ونتأرجح بين كفّتي ميزانها في الحياة. ولكن قد يحدث طارئ ما يفقد المجتمع توازنه، ويعطّل ميزانه فينقلب ما في كفّتيه، ويحصل خلط وتشويه للمعايير، ويكون الضياع.



* باحثة في التراث العربي (لبنان)

- العمل الفني: الفنان شادي العيسمي

وهذا ما حصـــل للمجتمع العباسي الذي اختلطــت معاييره حتـــى انقلبـــت رأساً على عقب، وباتـــت الفضائل فيه رذائل، والرذائل فضائـــل، والمجون ظرفـــاً، والعلـــم بضاعة كاســـدة، والأخلاق تجـــارة بائـــرة، وأضحى الحمـــق والوسوسة والجنـــون والكدية فنوناً لها رواجاً لا يعقله عاقل، ولهذا تنظّمت على أيدي أمرائها، وأصبح لها أصولها ومدارسها التي تلقّـــن العاقل فن التجانن، وتعلم الفطن فـــن التحامـــق، وتكشف أمام الســـويّ أسرار التوسوســـ. وهذه الفنون كلها كانت تلتقي في كونهـــا منافذ لبيع النفس الكريمة بكل قيمها الحرّة مقابل حفنة مـــن الدراهم تكون ليس فقط درعاً بوجه الموت جوعاً، بل باباً يوصل إلى الغنى والشهرة.

وما يعنينا من هذه الفنون في هذا البحث هو «فن التحامـــق» الذي أنتج أدبـــاً ساخراً حتى النخاع وأحمق حتى الثمالة؛ أدباً يطلق ســـراح الضحكة من سجن الأسى عنوة، ويثير الدهشة فينا لشدة بلاهة وبديهية معانيه.

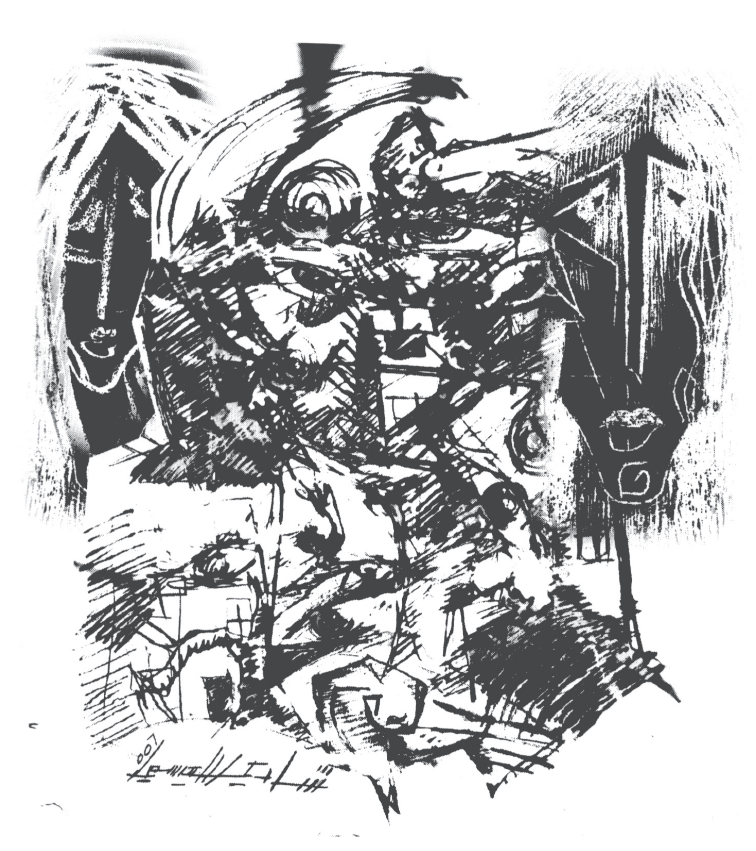
وإن من يقرأ هذا النتاج الأدبي، لا يمكنه إلا أن يعجـــب من الشاعـــر، ومن شعره، ومن مناسبة القول، ويدهش من العصر الذي أفرز هذا الشعر، ومن خلفائه المشجّعين والمجزين لأصحابه، ومن شعرائه الأسوياء المتحامقين، ومن الأدبـــاء الذين اسقطوا مـــا قاله هؤلاء الشعـــراء في جدّهـــم، وتهافتـــوا على تدوين حماقاتهم الشعرية تلبية لذوق أسياد العصر وعامته.

الحمق لغوياً :

هو كلمة مأخـــوذة من حمقت السوق إذا كسدت، فكأن الأحمق كاسد العقل والرأي فلا يشاور. ومعنى الحمق: هو الغلط في الوسيلة مع صحّـــة المقصود، بخـــلاف الجنون الذي هـــو عبارة عن الخلـــل في الوسيلة والمقصود جميعـــاً، فالأحمق مقصـــوده صحيح، ولكن سلوكه الطريق فاسد.[1]

وقديماً كان العرب، وهم أهل الفصاحة والبيان، يكثرون من ابتداع المسمّيات المتعددة لكل ما يداومون على استعماله أو يستعينون به على قساوة حياتهم، فيعوّضون عن قلّة عددها بكثرة مسمّياتها، مع أن الاختلاف في المعنى بين هـذا المسمّى وذاك يكون بالكاد ملاحظاً.ولهذا أكثروا من مسمّيات الخمر التي كانت الشراب الوحيد الذي يحرك رتابة

حياتهم، ويلوّن موائدهم، ويطرح البهجة في سهراتهم، ويحدّ من شظف الحياة الجاهلية. وأطلقوا على الإبل أسماء تكاد تكون عصيّة على الإحصاء، لأنها كانت الوسيلة الوحيدةالقادرة على فكّ هذا الحصار



الصحرائي الذي يطوّقهم، وهم الرحّل المتنقلون أبدا من مكان إلى آخر في هذا المحيط الرملي الكبير، بحثاً عن الكلأ.

وكذا كان حال المطر وهو مصدر الحياة الوحيد، والسيف وهو رفيق الدرب وأداة الدفاع والقتال التي تلازم محيط الرجال كافة، والخيل وهي عنوان العزة والفروسية والسيادة، وغيرها... ولكثرة ما أوجدوا لهذه الوسائل من أسماء، وضع اللغويون كالأصمعي والأنصاري حولها معاجم ضموّا فيها كل مترادفات الشيء الواحد، فكان لدينا «كتاب الخيل» و«كتاب المطر» وسواها.

وهذا الحضور الملفت لهذه الأشياء في العصر الجاهلي عاد وتكرّر، ولكن مع بعض الظواهر التي عززت نفسها في الحياة

العباسية ذات الثراء غير المحدود، والتنوّع الثقافي غير المسبوق، والخلل الطبقي الجائر، وكان أربابها من الموهوبين المهمّشين في زمنهم والمهددين دوماً بالفاقة.

ومن هذه الظواهر، ظاهرة التحامق التي تكلّف أصحابها الحمق وطلبوه، ودرّبوا النفس عليه، وقد كان لهم من الحضور القوي، والطلب الغريب عليهم في الحياة العامة ما جعلهم يحتلون في زمانهم مكان الخمر/ الدواء لحياة قاسية جافة على أهلها ومكان الإبل/الوسيلة الوحيدة للتغلب على أمواج الرمال التي تطوّقهم، والسيف/ الحماية لهم من الغزوات في العصر الجاهلي..

ولهذا اكتسب المتحامق مسميّات ومترادفات كثيرة لها المعنى ذاته، مع بعض الاختلاف.

من هذه الأسماء نذكر :«الرقيع، والمائق، والحظل، والمأفون، والمأفوك، والأهوج، و الباحر، والأحرق، والهتور، والمارق..» وللتدليل على الفرق المعنوي البسيط فيما بينها، نورد ما ذكره ابن الأعرابي حين ميز بين الرقيع والمائق فقال: الرقيع: هو الذي يحتاج أن يرقع من حمقه. والمائق: هو مثل المائح الذي في أسفل البئر.[٢]

نظرة القدماء إلى الأحمق :

قديماً، كان يربط الحكماء العرب بين هيئة الرجل ومضمونه، وقالوا: إذا كان الرأس صغيراً رديء الشكل، دلّ على رداءة في هيئة الدماغ. وقالوا :«الحمق سماد اللحية، فمن طالت لحيته كثر حمقه. ومن الصفات الشكلية التي اتفقوا عليها في تمييز الحمق: صغر الأذن، ومشيته وتردده، وأكّدوا على أن كلامه أقوى الأدلة على حمقه؛ فهو سريع الجواب، دائم التعجّب، كثير الكلام فيما لا يعنيه، يتفوّه بكلام خال من العلم أصلاً، لأن العقل لا بدّ من أن يحرك إلى اكتساب شيء من العلم وإن قلّ.

قال أبي إسحاق:» إذا بلغك أن غنياً افتقر فصدّق، وإذا بلغك أنّ فقيراً استغنى فصدّق، وإذا بلغك أنّ حيّاً مات فصدّق، وإذا بلغك أنّ أحمق استفاد عقلاً فلا تصدّق.[٣]

وقال بعض الحكماء :«من أخلاق الحمق: العجلة، والخفة، والجفاء، والغرور، والفجور، والسفه، والجهل، الظلم، والخيانة، والغفلة، والخيلاء، والمكر. إن استغنى بطر، وإن افتقر قنط، وإن فرح أشر، وإن قال فحش، وإن سئل بخل، وإن سأل ألحّ، وإن قال لم يحسن،

وإن قيل له لم يفقه،وإن ضحك نهق، وإن بكى خار».

وقالوا: يعرف الأحمق بست خصال هي: الغضب من غير شيء، والإعطاء في غير حق، والكلام من غير منفعة، والثقة بكل أحد، وإفشاء السرّ، وهو لا يفرّق بين عدوّه وصديقه، ويتكلم ما يخطر على قلبه،و يتوهّم أنه أعقل الناس.

وقال أبو حاتم الحافظ في وصف تصرّف الأحمق :«الأحمق إن عرضت عنه أعتم، وإن أقبلت عليه اغترّ، وإن حلمتَ عنه جهل عليك، وإن جهلت عليه حلم عليك، وإن أحسنت إليه أساء إليك، وإن أسأت إليه أحسن إليك، وإذا ظلمته أنصفت منه، ويظلمك إذا أنصفته. فمن ابتلى بصحبة الأحمق فليكثر من حمد الله على ما وهب له مما حرمه ذاك».(٤)

ونقل عن هشام بن عبد الملك قوله:«يعرف حمق الرجل بخصال أربع: بطول لحيته، وشناعة كنيته، ونقش خاتمه، وإفراط شهوته.» (٥)

ويقول مسكين الدارمي في غرر الخصائص للوطواط محذراً من مصاحبة الأحمق:

احذرِ الأحمق أن تصحَبهُ
إنما الأحمقُ كالثوبِ الخلِق
كلّما رقّعته من جانبٍ
زعزعتهُ الريحُ يوماً فانخرق
أو كصدعٍ في زجاجٍ فاحشٍ
هل ترى صدعَ زجاجٍ يلتصقْ
فإذا عاتبته كي يرعوي
زاد شراً وتمادى في الحُمقْ

ونبني على ما ورد احتقار الأقدمين للأحمق، ومحاولتهم تمييزه بغية عزله عن المجتمع وحصره بفئة خاصة هي أدنى من طبقة الأسوياء، وتجنّب التعامل معه كي لايطالهم منه سوء. وهو لديهم لا يختلف عن المجنون في شي، ولا بدّ من تحييده عن سبيل العقلاء والأسوياء.

تبدل نظرة المحدثين إلى الأحمق بتبدل صفاته:

تغيرت نظرة العرب إلى الأحمق مع التقدّم في الزمن وتحوّل المجتمع من بدوي إلى مدني، وتبدل أسلوب الحياة فيه، إذ بدأت تتكسّر حروفه الصلبة وتصبح أكثر تدويراً ومرونة، حتى إذا جاء العصر العباسي، كانت النظرة قد تبدّلت كلياً، وبات الحمق فيه صفة مرغوبة ومطلوبة بعد أن كانت مرذولة

ومحتقــرة، وأضحــت مصدر كســب وشهرة لا يضاهيهــا أي مصدر آخــر مهما بلغ علم الرجل وذكاؤه وموهبته.

وهذا الانقلاب هو الذي حثّ بعض شعراء وعلماء العصر العباسي العقلاء المثقفين على تبني مذهب التحامق بعد أن ولّى زمن الحمق الحقيقــي، كما ولّى كل شيء حقيقي في ذاك العصر المنمّق المتكلّف الذي له ظاهر وباطن، وأضحــى للمتحامق بدءاً من عصر المتوكل(٦) «ت ٢٤٧هــ/ ٨٦١م» دوراً ومكانــاً ومكانة في القصور، فهو دواء للملل، وعلاج للفراغ، وأداة لتلبية نزوات السادة وإشباعاً لنرجسيتها.

كما قام بتأديــة أدوار ومهام خاصة مثل نقــل الأخبــار، والتجسس، وعقــد المواعيد الغرامية وغيرها. وهنا تمثّل شخصية«أشعب » النمــوذج الأمثل في أداء المهام الخاصة من هذا النــوع ذلك أن المتحامقين المتكسبين من شعراء وعلمــاء ذاك العصر كانــوا يمتلكون عقولاً ناضجة بــار سوقها، وعلومــاً واسعة كسدت، وذكاء حاداً.

وكان المتحامــق العباسي يتميز عن سواه من المتحامقين المنافســين له بما يبتكره من حماقات؛ فأبو العبر مثلاً كان يتميز ويستدل عليــه ببشاعــة كنيتــه، إذ كان يزيــد في كل سنة حرفــاً على كنيته حتى مات، وهي :«أبو العــبر طرد طيل طليري بك بــك بك» . وأما نقشــن خاتمه وهو من علامات التحامق التي أشار إليهــا بعضهم فكان :«تــوفي جحا يوم الأربعاء»(٧).

وإن علــم وموهبــة وذكاء المتحامقين قد دفع بهــم إلى تأسيس رابطــة أساسها وحدة الانتمــاء ووحدة الهــدف والغايــة والسبيل والمصــير، وأقامــوا لهم نظامــا تراتبياً على غرار مــا وجدناه لدى الفئــات الاجتماعية الأخــرى كالشحاذين والشطــار واللصوص. ونصّبوا أميراً عليهم تكون له الزعامة ويرجع إليــه المتحامقــون في أمورهــم وقضاياهم، وتأسس هذا التقليد في العصر العباسي.فأبو العبر كان يؤمــر على الحمقى فيشاورونه في أمورهــم، ويذكر ابن النديم أن الكتنجي وهو مــن أقطاب التحامق في عهــد المتوكل، وقد خلف أبا العبر على الحماقة بعد موته.

كمــا كان للتحامق أساتذة وأصول وفنون وطــرق، وقد أشار أبو العبر إلى ذلك في قوله :«كنا نختلف ونحــن أحداث إلى رجل يعلمنا الهــزل، وكان يقول :» أول مــا تريدون قلب

الأشياء، فكنّا نقول إذا أصبح: «كيف أمسيت؟» وإذا أمسى، كيف أصبحت؟ وإذا قال: تعال: نتأخر إلى الخلف، وكانت له أرزاق أي أجر أو هبات من طلاب الحماقة، وهم في هذا مثل المكدين.(٨)

هذا فضلاً عمّا يجب أن يمتلكه المتحامق من فنون أخرى ومقوّمات تجعله شخصاً له حضوره؛ فأشعب كان يجيد ضرب المزهر والغناء، وعليان الموسوس كانت تستنطقه العلماء لتسمع منه جوابه وكلامه، وكذا أبو العبر، والصيمري العالم الأديب المؤرخ والفلكي(٩). وقد أثمر هذا الفن أدبا كون المتحامقين هم أصلاً من العلماء والشعراء والأدباء الذين رفض المجتمع بسادته وعامته الإصغاء لهم عاقلين، وشنّف آذانه لهم بشغف وهم يتحامقون.

منبتهم الاجتماعي:

إن أولى السمات التي ميّزت فئة الحمقى والمتحامقين عن غيرهم، هو انتماؤهم إلى فئات اجتماعية ذات مكانة وضيعة، فأكثرهم من الموالي والعبيد واللقطاء والمشرّدين الذين لا نعرف شيئاً عن أصولهم في زمن كانت السيادة فيه للأسرة أو العشيرة. وإن أسماء مثل: فند، الدلاّل، نومة الضحى، زرجون، تكشف عن منزلة اجتماعية متدنية. وهناك إشارات واضحة تؤكّد صحّة ذلك؛ فأشعب رائد التحامق هو ابن مولى، وقد رمت المصادر أمّه بالزنا وسوء السلوك والانحراف عن أصول الدين(١٠). والفاخري خصمه وابن مهنته وبيئته كان من اللقطاء الذين لا يعرفون لهم أبا ولا أماً.(١١)

وتربّى هؤلاء على العبث، عدا طفرات خاصة مثل أبي العبر الهاشمي الذي ترجع أصول أسرته إلى مكانة معروفة بالجاه والثروة والسلطة في العصر العباسي. وقد تحامق بسبب نزعة انسلاخ طبقي ورغبة في التحرر الذاتي الفردي، فكان ساخطاً ناقماً، والتحامق لديه وسيلة انتقام واستهزاء بقيم المجتمع بقدر ما كانت ناجمة عن ضيق ذات اليد.

تاريخ فن التحامق:

وبما أن التحامق هو لون من ألوان الظرف، فإن بداياته كانت تسير في ركابه وتختبىء تحت عباءته، وقد توضّحت معالمه في المجتمع الأموي بسبب عوامل عدة منها: الاستقرار، ونمو المدن، وتراكم الثروات،ونشوء

طبقة أرستقراطية غنيّة أخذت تلتمس أسباب المتعة وتنشد حياة البذخ.

ولهـذا نقول بأن مجتمع المدينة والحجاز كان البيئـة التي احتضنـت انبعاث الظرف ورعـت أفراده. وكانت هذه البيئة ذات الغنى والترف أسبق من دمشـق في اهتمامها بهذا الجانب، وأكثر منها ولعاً وأعمق تأثيراً. وبات ذاك المجتمع يتذوّق الظرف وتروق له النادرة ويطلب أربابها، حتى غـدت نوادر المدينيين كمـا يقال: بابـاً على حدة في كتـب الأخبار والمحاضرات. ومن فرسـان الظرافة آنذاك وأقطابها المشهورين بحسب ما نقرأ في بخلاء الجاحظ(١٢): أشعب، والدلاّل، والفاخري.

ومع هؤلاء بدأ الظرف الذي يعدّ التحامق مـن أهـم منابعه مطلبـاً اجتماعيـاً عاماً، فازدهرت تجارتهم وراجت بضاعتهم، وصار سـراة القوم يجـدون في الحمقى مظهراً من مظاهـر الرفعة والغنى والـثراء. ومن يقتني متحامقاً في قصـره كمن يقتني حيواناً نادراً أو قطعـة من التحف الذي ينافس بها أنداده من المثرين.

وبات الظرف الذي من مفرداته وأدواته: التطفيل، والتحامـق، والتوسوس، والتماجن، والتخنيـث تجـارة رابحة رائجـة ومطلوبة، وتستوعب في صفوفهـا كل قادر على ابتداع الغريـب والظـرف والمدهشـ، وكان لدينا أشعب، والغاضري ومزبِّد، ومطيع، وزرجون، وابن نقاش، والدلاّل، وهنب، وطويس، وقند، وبُديح.(١٣)

وتفاوتت طاقات هؤلاء وتباينت مهاراتهم، وكذلـك حظوظهم لدى ذوي السلطان حسب عوامل منها: اتقاد الخاطر، وسرعة المبادرة، وحضـور البديهـة، والقدرة علـى ابتكار ما يدهشـ. وهـذه العوامل كانـت وراء شهرة أشعـب في المدينة، وبُديح في البلاط الأموي، وأبي دلامة في البلاط العباسي، ومعهم بدأت تتشـكل الشخصيـة ذات الثقافـة والمواهب المتعددة.(١٤)

وبعد انطلاقة الحماقة في العصر العباسي الأول، فتحـت أبـواب التحامق علـى أوسع نطـاق فازدادت أفـواج المتحامقين وانخرط فيهـا الأدبـاء والشعراء، ودخـل في سلكهم بعض الأشراف والنبلاء، وانتقلت الموجة من البلاط إلى الشارع ومن الخاصة على العامة وأصبحت مهنة بكل ما تعنيه الكلمة.(١٥)

أسباب ازدهار فن التحامق وأخوته في العصر العباسي:

كان العصر العباسي الحقبة الذهبية الأكثر توهّجا وثراء في تاريخ الحكم الإسلامي، فترف الناس حتى ملّوا الترف في «حقبة الترف» كما سماها المنجد. وكانت الحقبة الأكثر حظاً من الترف هي تلك التي بدأت بخلافة المهدي (١٥٨هـ) وانتهت في أواخر (ق ٤هـ). ويقول Baudrillart في كتابه «تاريخ الترف»: إن الترف ينهض على أربعة عناصر هي :

١-**الزهو والكبرياء:** فالمترف يزهى ويسعى إلى تأييد زهوه بطرافة ما يحيط به، فينشأ عن ذلك ترف النّفاسة بين المنعمين، فهم يتنافسون في التزيين والأناقة، ويطمعون في مرضاة أشباههم ونيل إعجابهم، فينفقون ولا يأبهون، ويسرفون ولا يخافون.

٢-**التمتع بكل لذة حسّية:** يمكن قطفها والتنعّم بها في هذه الدنيا مهما كان لونها وشأنها ورفعتها وحقارتها.

٣-**غريزة التزيّن:** والإقبال على الزخرفة والتزويق.

٤-**حب الطريف:** الذي لم يعرفه الناس في كل شيء، وسرعة ملاله إذا عرفوه، والرغبة في التنقلّ من طريف جديد إلى آخر أجدّ. وبهذين العنصرين الأخيرين يتّصل الترف بالفن أوثق الاتصال وأمتنه.(١٦)

وإن هذه العناصر كلها كانت عند أناس بغداد خاصة في تلك الحقبة؛ إذ أزهر الترف فزها الخلفاء والأمراء والوزراء وحواشيهم والظرفاء من الندامى والشعراء، وانطلقوا إثر الملذّات كلها يصطادون طريفها ويتخيّرون طيبها، ويحيون في قصور ضاحكة تسجو في ظلال النخيل وتشرق بنضارة النعيم، فيها ستور حمر معصفرة ومجالس مشرقة وجدُرات ذُهّبت بالأبريز وموّهت باللازورد، ونُقشت بالصور وازدانت بالتماثيل، وفيها أبواب عظام ضخام تتدلى منها مسامير من ذهب قُمِّعت رؤوسها بالجوهر النفيس، وفُرُش مختلفات الضروب والصنوف، وبُسط زركشت بالنضّار وطُرِّزت بالحرير.(١٧)

وعاشوا حياتهم كلها فن لأن الفنّ كما يقول «لالو» في كتابه «الفن والحياة الاجتماعية» هو وليد الترف أو هو الترف منظماً(١٨)ومن هذا الطريف الذي اهتمّوا به: المجون، والجنون، والتحامق، والتوسوس،

وكلّها فنون للتسرّي والتسلية، وقتل للوقت الذي هدروه سدىً، وكانت فديته الخلافة العباسية التي تقسّمت إلى دويلات ومن ثم قضي عليها.

وإن ما سبق كان السبب العام والمناخ الكبير الذي نشأ في جوّه الظرف بكل فنونه، غير أن هناك أسباباً خاصة دفعت إلى تحامق بعض الشعراء والعلماء نطق بها لسان حالهم شعراً في المبحث التالي :

ما قاله الشعراء في سبب تحامقهم:

دأب البشر على أن يلصقوا بأنفسهم صفات جيدة ليست فيهم، يدّعونها ادّعاء ليعلوا شأنهم، وتحسن صورتهم في أعين المجتمع؛ كأن يدّعوا امتلاكهم لموهبة الشعر، أو القصّ، أو رواية الأخبار، أو الاطّلاع على التاريخ وغيرها. لكن أن يدّعي عشرات المثقفين والشعراء ورواة الأخبار التحامق ليأخذوا مكانهم في مجتمعهم، ويلعبوا فيه أدوارا تبزّ أدوار العقلاء، فإن هذا الادعاء المرضي يرجع كما رأينا إلى أسباب عامة عصفت بالمجتمع ككل وأدّت إلى هذا التحوّل أو الانقلاب في المعايير، فضلاً عن أسباب خاصة هي نتائج للأسباب العامة التي وقفنا عليها وسنعرضها كما جاءت على ألسنة الشعراء المتحامقين أنفسهم:

قال أحد الشعراء الذين امتهنوا الحماقة:

إذا كان الزمانُ زمانَ حمقٍ
فإن العقل حرمانٌ وشومُ
فكن حَمِقاً مع الحمقى فإني
أرى الدنيا بدولتهم تدومُ(١٩)

يرى هذا الشاعر أن لا جدوى من استخدام العقل في دولة شعبها من الحمقى، لأنك ستنبذ بسببه، وعليك أن تتكلم بلغة زمانك وتتلون بلون مجتمعك لتنجو.

وقال الغنوي:

الروحُ والراحةُ في الحُمقِ
وفي زوالِ العقلِ والخُرْقِ
فمن أرادَ العيشَ في راحةٍ
فليلزمِ الجهلَ مع الحُمْقِ(٢٠)

يرى الغنوي أن راحة البال تأتي من الاستغناء عن العقل بكل تساؤلاته وتحليلاته وتفاسيره، لأن تناقضات الحياة العباسية كثيرة، والشرخ الطبقي فيها بات حاداً، والإقبال على الرذائل غدا موضة، والأخلاق أصبحت مذمومة، وهذا كله غير منطقي وغير مبرر ولا مقنع لصاحب العقل.

وقال أبو العجل :

...فأصبحتُ في الحمقى أميراً مؤمّراً
وما أحدٌ في الناسِ يمكنهُ عزلي
وصيّرَ لي حمقى بغالاً وغِلمةً
وكنتُ زمانَ العقلِ مُمتطياً رجلي(٢١)

وقال أيضاً:

ولقد قلتُ حين أغروا بلومي
أيها اللائمونَ في الحمقِ مهلا
حُمقي قائمٌ بقوت عيالي
ويموتون إن تعاقلت هزلا(٢٢)

ويجد هذا الشاعر في تحامقه مهنة لاتقيت أولاده فحسب بل تصيّر له البغال والغلمان وتنصّبه أميراً له سلطانه وسطوته على جماعة المتحامقين الذين لا يردّون له أمراً، وقد كان في زمن الرصانة والعقل جائعاً يقطع المسافات بحثاً عن رزقه مشياً على الأقدام غير قادر على امتطاء دابة.

وقد استفاد المتحامقون من مكاسب أخرى منها: إتاحة الفرصة أمامهم لأن يدخلوا القصور من أوسع أبوابها ويتدخّلوا بأدق تفصيلاتها الحياتية، وأن ينقدوا، ويتخلّصوا من كل القيود والضرائب المفروضة على أصحاب العقول، فتنفسّوا الحرية بملء الرئتين. رغم أنهم قطعوا كل صلة لهم مع واقعهم وعاشوا حالة من الغربة عن ذواتهم وعن حقيقتهم.

أهم من كتب في الحمق:

إن تبني المجتمع العباسي لظاهرة الظرف بكل فنونها وألوانها دفع بأهم علماء العصر إلى الاهتمام بهذه الألوان والترجمة لأعلامها، وهذا ما بدأه الجاحظ الذي كان أول من رصد تيارات عصره وسار على نهجه كل من: الهمذاني، والحريري، والثعالبي، والتوحيدي الذين عبّروا من خلال هذا الرصد عن نزعة شعبية وواقعية باهتمامهم بأدب الفئات الدنيا المنبوذة وما كان عليه حالها وما أصبح عليه بعد أن ركب أصحابها واحدة أو أكثر من الموجات السائدة.(٢٣)

وقد برّر كل منهم في مقدّمة كتابه سبب اهتمامه بالحمقى وأخبارهم وأشعارهم، لعل هذا راجع إلى عدم اقتناعهم بأهمية وجدوى ما يدونّون، ولكنهم اضطروا كغيرهم إلى ركوب موجة الظرف التي كانت طاغية شأنهم في هذا شأن المتحامقين. ومن أهم من عني بهم نذكر:

الجاحظ: وتعدّ مؤلفات الجاحظ من أقدم الكتب التي حوت مادة غزيرة من أخبار

الحمقى أغلبهـا نوادر كان ينثرها في فصول مؤلفاته بطريقـة لا تتبدلّ، والهدف هو دفع الملل عن القارىء، وجذب اهتمامه، كي لا يترك الكتاب، فكانت هـذه النوادر أشبه بمحطّات استراحة وهذا ليس مسلك الجاحظ فقط، بـل كل أصحاب المؤلفات الأدبية ذات الطابع الشمـولي في التأليف الذيـن جعلوا من هذه الطريقة نهجاً لا يحيدون عنه.

ابـن عبد ربه: وهو صاحـب كتاب«العقد الفريد» وقد جعل فيه مكاناً خاصاً بحكايات الحمقى التي يرى فيها مرتعاً للنظر ولقاحاً للعقل وسميراً في الوحدة. وهو يكتشف فيها قيماً اجتماعية ونفسية وعقلية.(٢٤)

وعلـى دربهمـا سـار ابـن قتيبـة في مصنفه«عيون الأخبـار»، والمبرّد في مصنفه «الكامـل»، والنويـري في موسوعتـه «نهاية الأرب» . ولكن دافع جذب القارئ ومنع الملل عنه لم يكن الدافع الوحيد فهناك دوافع أخرى نجدها عند أعلام آخرين من أهمهم:

ابن الجوزي: صاحب كتاب«أخبار الحمقى والمغفلـين» . وهو كاتب ذو تحليل نافذ ورؤية عميقة في معاينته تفاعلات القاع الاجتماعي في عصـره، وفي رصده لتيارات مجتمعه على نحـو ما تسفر عنـه مؤلفاته عـن الأذكياء، والقصاصين، والوعّاظ، والقيان، والحمقى. وقـد ذكر في مقدمة كتابه عـن الحمقى أنه أراد مـن وراء ذكر أخبارهـم أن يتشكل لدى القـارئ معيار لما ينبغي على العاقل أن يحذر من الوقوع فيه، وأن يتعلم السوي كيف يشكر الله علـى ما أنعم به عليـه، هذا فضلاً عن الرغبة بدفع الملل والترويـح عن النفس كما كان شأن أسلافه من الكتاب.

ومنهـم من كتب تلبية لرغبة شخص ذي قـدر لا يمكـن ردّه كما فعل كثـيرون، ومن أهمهم :

النيسابـوري: صاحـب كتاب«عقـلاء المجانين» الذي كان أول من استوعب الظاهرة ودرسهـا في إطارهـا الاجتماعـي، ونبّه إلى الدوافـع والأسباب الاقتصاديـة والسياسية والثقافية، التي كانت وراءها.

الحصري: صاحب كتاب «جمع الجواهر» الـذي اختبأ وراء السبب عينـه، وهو إرضاء رغبـة صديـق، ودفع الملل. ولكـن نهجه في الكتابة جـاء مغايراً لنهـج النيسابوري، إذا قام بعزل النادرة عـن محيطها وأبرزها كفنّ مستقل. وقـد ضمّ في كتابـه «زهر الآداب» حكايات وفكاهات المتحامقين.

وهكذا نرى بأن منطلقات الأدباء تنوّعت، واهتماماتهم تعددت، وطرقهم تمايزت في تناول المادة فبعضهم نثرها في زوايا الكتاب، وبعضهم جعل لها باباً أو فصلاً، وأخيراً جاء من أفرد لها كتاباً.

ويبقى أن نقول بأن اهتمامهم كان محصوراً بالجمع فقط دون وعي لهذه الظاهرة ورؤى ومواقف وتحليل علمي يفيدنا ؛بسبب كونهم الأقرب زمنياً ومكانياً من الظاهرة. وقد أهملوا الوجه الحياتي الجاد للمترجم لهم والتفتوا إلى وجهه الهزلي. وكانت نزعتهم في الكتابة تقريرية تسجيلية، وقدموا لنا صورة ضبابية أظهروا فيها عدم القدرة على رسم حدود واضحة بين الأحمق والمجنون والمغفل والموسوس وغيرها.. (٢٥) وربما يشفع لهم في هذا أن الجميع يشتركون بصفة العقل الناضج والواعي، وبصفة تكلف الإعاقة وتصنّعها وادّعائها.

الهوامش

١- أخبار الحمقى والمغفلين، ابن الجوزي، ص ٢٢.
٢- المصدر نفسه، ص ٢٧.
٣- المصدر نفسه، ص ٢٣.
٤- المصدر نفسه، ص ٣٥.
٥- جمع الجواهر في الملح والنوادر، الحصري، ص٢٢٤.
٦- المتوكل: هو جعفر بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد. خليفة عباسي ولد في بغداد وبويع بعد وفاة أخيه الواثق (٢٣٢هـ). كان جواداً ممدحاً محباً للعمران، من آثاره: المتوكلية ببغداد وقد انفق عليها أموالاً وسكنها. قال بترك الجدل في القرآن وهجاه بعض الشعراء لهدمه قبر الحسين وما حوله سنة ٢٣٦هـ. كان يلبس في أيام الورد الثياب الحمر ويأمر بالفرش الأحمر ولا يرى الورد إلاّ في مجلسه وكان يقول:«أنا ملك الورد والورد ملك الرياحين، وكلّ مناّ أولى بصاحبه. وكان أسمر مليح العينين، نحيف الجسم، ضعيف العارضين، وكان أقرب إلى القصر. الأعلام، الزركلي، بيروت، دار العلم للملايين، ط٩، ١٩٩٠، ١٢٧/٢.
٧- مقالات في أدب الحمقى، الحسين، ص٥٢.
٨- جمع الجواهر في الملح والنوادر، الحصري، ص٣٠٧.
٩- مقالات، الحسين، ص ٥٨.
١٠-الأغاني، الأصبهاني، ٨٣/١٧.
١١-الأغاني، الأصبهاني، ١٠٨/١٧.
١٢-البخلاء، الجاحظ،، ص٢٦١.
١٣-وأخبارهم: في الأغاني، الأصفهاني، ٣٣/٣، ونهاية الأرب، النويري، ٢٣/٤، فوات الوفيات، الكتبي، ١٣١/٤، جمع الجواهر، الحصري، ص ٥٢.

١٤-مقالات في أدب الحمقى، الحسين، ص ١٦-١٩.

١٥-المصدر نفسه، ص ٢٢.

١٦-الظرفاء والشحادون، صلاح الدين المنجد،ص ٢.

١٧-طبقات ابن المعتز، ص ٩٥.

١٨--الفن والحياة الاجتماعية، لالو، ص ٩١، الظرفاء والشحادون، المنجد، ص ٤.

١٩-عقلاء المجانين، النيسابوري، ص٣٧.

٢٠-غرر الخصائص، الوطواط، ص ٨٢.

٢١-طبقات الشعراء، ابن المعتز، ص٣٤٠.

٢٢-عقلاء المجانين، النيسابوري، ص٤١.

٢٣-مقالات في أدب الحمقى، أحمد الحسين، ص ٨.

٢٤-العقد الفريد، ابن عبد ربه، ١٤٢/٦.

٢٥-مقالات، الحسين، ص ٦٥-٧٠.

المصادر والمراجع

١- أخبار الحمقى والمغفلين، ابن الجوزي، بيروت، دار المسيرة، ط٤، ١٩٨٠.

٢- أشعار أولاد الخلفاء، أبو بكر الصولي، بيروت، دار المسيرة، ط٣، لا تاريخ.

٣- الأعلام، الزركلي، بيروت، دار العلم للملايين، ط٩، ١٩٩٩.

٤- الأغاني، الأصفهاني، تحقيق على السباعي، إشراف محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار إحياء التراث العربي، لا تاريخ.

٥- البخلاء، الجاحظ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار النهضة، ١٩٦٥.

٦- تتمة يتيمة الدهرن الثعالبي، نشر عباس إقبال، طهران، ١٣٥٣هـ.

٧- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، الثعالبي، تحقيق رحاب عكاوي، بيروت، دار المناهل، ١٩٩٣.

٨- جمع الجواهر في الملح والنوادر، الحصري، القيرواني، تحقيق رحاب عكاوي، بيروت، دار المناهل، ١٩٩٣.

٩- دائرة المعارف، بطرس البستاني، بيروت، دار المعرفة، لا تاريخ.

١٠-طبقات الشعراء المحدثين، ابن المعتز، تحقيق عبد الستار فراج، مصر، دار المعارف، لا تاريخ.

١١-الظرفاء والشحاذون، صلاح الدين المنجد، القاهرة، مطبعة الرسالة، لا تاريخ.

١٢-فوات الوفيات، الكتبي، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، لا تاريخ.

١٣-مقالات في أدب الحمقى والمتحامقين، أحمد الحسين، دمشق، دار الحصاد، ١٩٩٩.

١٤-الوافي بالوفيات، الصفدي، تحقيق ديدرينغ، دمشق، المطبعة الهاشمية، ١٣٥٤هـ.

